**بين الحلم والتحلم**

**نحتاج فى مواقفنا الكثيرة الى ضبط النفس وشدة التماسك ويسر التناول وتلك عناصر تندرج فيما يعرف لدى الاخلاقيين بالحلم وهو سيد الاخلاق جميعا لانه يضم فضائل كثيرة من شمائل النفس الزكية فالحليم كاظم غيظه وعاف عن الناس عند مقدرته وهو يقابل السيئة بالحسنة دفعا بالتى هى احسن وتطبيق ذلك كله لا يتيسر إلا للأفذاذ**

**ونحن نعلم ان الخلق الانسانى يتنوع إلى خلق فطرى ينشأ مع الانسان فى جبلته وخلق مكتسب يتمرن صاحبه على تحصيله فى جبلته وخلق مكتسب يتمرن صاحبه على تحصيله باذلا كل جهده حتى يمتلك زمامه ويصبح كأنه عادة متأصلة فيه إذ إن الاخلاق الراقية تحتاج الى علاج كبير حتى يستقيم منهجها سلوكا وعملا وقولا وكم من شرير هائج الطبع فاسد المنحى أتيح له من ذوى الاخلاق الفاضلة من بذل جهد الصابرين فى هدايته وتقويمه حتى استطاع ان يسير به على النهج القويم وكم من شاب برىء نشأ فى بيئة صالحة وورث عن ابائه عناصر الاستقامة وبواعث الخير ثم اختلط ببيئة فاسدة يسودها الانحلال الخلقى فارتكس معها إلى الحضيض نقول ذلك ردا على فلاسفة فى الشرق والغرب يذهبون الى ان الخلق موهوب لا مكتسب وأن الفاسد فاسد بجبلته والصالح صالح بعنصره وذلك مذهب يلقى اليأس فى تفوس المصلحين ويرد عليه الإمام الغزالى بقوله " لو كانت الاخلاق لا تقبل التغير لبطلت المواعظ والوصايا والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسنوا أخلاقكم " وكيف ينكر هذا فى حق الادمى مع ان تغيير خُلُق البهيمة ممكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الانس والكلب من شره الاكل الى الامساك والقناعة والفرس الجموح من الهياج الى السلامة والانقياد وكل ذلك تغيير فى الاخلاق والمسألة من الوضوح المشاهد بين الناس بحيث لا تحتمل اللجاج**

**واذا كان الحلم سيد الاخلاق فطريقه لدى من لم يرزقه كموهبة ان يتحلم بمعنى ان الانسان اذا قوبل بالشر فعليه ان يضبط نفسه الثائرة المهتاجة فلا يستجيب لبوادر الشر بادىء ذى بدء فإذا تكرر ذلك منه انتقل من مرحلة التحلم الى مرحلة الحلم بحيث لا يحتاج الى عناء فى ضبط نفسه إذ يصير حلمه الوداع ضابطا دون الهياج ومن هنا كان كظم الغيظ اول ضوابط النفس الهادئة وهو علامة الرسوخ الخلقى لان صاحب هذا الضبط قد سيطر على انفعال حاد يصطخب فى اعماقه ويذل جهد الجبابرة فى انهاء صراع عنيف يدفعه الى الشر وتلك صفة المسارعين الى رضوان الله حيث يقول فى شأنهم**

**( )**

**ولعل الشاعر العربى قد صور بعض الوان الصراع حين قال :**

**لقد أسمع القول الذى كاد كلما**

 **تذكر فيه النفس قلبى يصدع**

**فأبدى لمن أبداه منى بشاشة**

 **كأنى مسرور بما منه أسمع**

**وماذاك من عجبى به غير أننى**

 **أرى أن ترك الشر للنشر أقطع**

**فأى تعال هذا الذى يجعل قلب صاحبه يتصدع إذا ذكر بواعثه فضلا عن معاناة تجربته اثناء وقوعه ؟ وأى انتصار صادف من استطاع ان يبدى البشاشة كأنه مسرور وهو ملتهب من الغيظ لا شك ان صاحب هذا الانتصار قد رزق نصيبا هائلا من ضبط النفس ليقطع الشر بالإمساك عن الشر وهو سبيل الحلماء**

**وإذا كنا نريد ان نفرق بين الحلم والتحلم من واقع علمى سجلته صحف التاريخ والسير فإن اول من تتخذه مثلا لصاحب الحلم المتأصل عن فطرة جبلة الله عليها هو محمد صلى الله عليه وسلم إذ إن خلقه الكريم قد صيغ مطبوعا على مقومات الكمال الانسانى وهو يأتى جميل الخصال إنما يصدر عن طبيعة نبيلة كما يصدر ضوء الشمس عن الشمس والأريج عن الزهر دون عناء تتخذ له الاسباب بمشقة واحتيال**

**جاء اعرابى الى حضرته صلى الله عليه وسلم بالمسجد يطلب منه شيئا فأعطاه ماتيسر فى يده ثم قال له فى هدوء أأحسنت إليك ياأعرابى ؟ فرد الرجل مندفعا : لا ولا أجملت وهو رد أحمق لا يواجه به صاحب عطاء فغضب المسلمون وهموا به ولكن الرسول أشار إليهم فى ابتسام فهدءوا ثم اتجه الى منزله الشريف ونادى الاعرابى فى تلطف وابتسام فأعطاه وأعطاه ثم قال له : أأحسنت إليك ؟ فقال الاعرابى مبتهجا : نعم وجزاك الله من اهل وعشيرة خيرا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس اصحابى شىء من ذلك فإذا احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال : نعم فلما كان الغداة جاء الاعرابى الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين اصحابه فقال صلى الله عليه وسلم ان هذا الاعرابى قال ما قال فزدناه فزعم انه رضى وتوجه الى الاعرابى بالنظر فقال الاعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل هذا الاعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فتبعها الناس فلم يزدها إلا نفورا فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها وأعلم فتوجه صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الارض فردها هونا هونا حتى جاءت فا ستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ولو أنى تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار هذا الحادث اليسير له اكثر من دلالة خلقية فى سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اعطى الرجل ما يراه كافيا لمثله وللرسول صلى الله عليه وسلم تقديره الصائب فيما يراه فما كان ليحرم الاعرابى شيئا يراه محتاجا إليه ومن الطبيعى أن ينتظر منه الرضا بعد أن أعطاه ما تصور أنه يكفيه ولكن نفس الاعرابى لم تقنع وكانت فيه صراحة متجرئة وحدة غير محمودة فأجاب الاعرابى اجابة رعناء لا تصدر عن عاقل أعطى ولو كان الرسول كسائر الناس لغضب واحتد حين رأى إحسانه يقابل بالعقوق وقد ثار اصحابه – رضوان الله عليهم – وكادوا يسيئون لمن تقدم بالإساءة لنبيهم الكريم ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاهم فكفوا ثم دخل منزله ودعا الاعرابى فأعكاه مرة ثانية**

**وهذا مضرب المثل فى الحلم الاصيل لانه عليه الصلاة والسلام لم يكتف بالعفو عمن اساء فى تهور بل استرضاه واكرمه بعطاء اخر ثم سأله أأحسنت إليك ؟ فأجابه بالرضا والدعاء وهنا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحمى الرجل من صحابته حين يقابله احدهم فيتذكر مجابهته للرسول فينال منه فقال للاعرابى : إنك قلت أمام أصحابى واشار عليه أن يحضر مجلسهم فى الغد وما كان من هدفه صلى الله عليه وسلم ان يعلن لأصحابه انه اعطى الاعرابى حتى رضى ولكنه اراد ان يقدم نموذجا عمليا للسيئة تقابل بالحسنة وللتهور يكافأ بالحلم والأناة وقد حضر الرجل من غده ليعترف بما كان وهنا قام المربى الكبير بإرشاده السديد لاصحابه فضرب المثل بالناقة الشاردة ومن تجمع حولها من الناس يحالون ردها فلا يستطيعون حتى ترضاها صاحبها بما جمع لها من حشائش الارض فاستناخت واسلمت القيادة وكل ذلك صدر من الرسول عن طبع يفيض بالحلم لم يتكلفه تكلفا ولم يصل اليه عن طريق التحلم بل فاض من شغوره نبلا من نفس تاتلق بالفضائل كما تأتلق السماء بصفحة البدر وهو صلى الله عليه وسلم يعلم من اسرار النفوس ما يجهل سواه فيقابل كل تصرف بنل يليق**

**وقد أشج عبد القيس على الرسول صلى الله عليه وسلم فأناخ راحلته فى ادب وهدوء ثم عقلها مستوثقا من رباطها وبادر الى رحله فانتزع أثواب السفر ليرتدى حليتين جميلتين ثم أقبل يمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد راى ماصنع فا ستقبله صلى الله عليه وسلم ببشر وقال له : يا أشج – وهذا ما كان ينادى به - إن فيك خُلُقين يحبهما الله ورسوله فقال الاشج : وماهما فداك امى وابى ؟ فقال عليهالصلاة والسلام : هما الحلم والأناه فقال الاشج : أهما خُلُقان تحلتهما أم خلقان جبلنى الله غليهما ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم بل خلقان جبلك الله عليهما فابتسم الاسج وقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهم الله ورسوله**

**وواضح من هذا الحوار الرقيق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدرك الفرق بين الخلق والتخلق وهذا غير مستغرب منه ولكن الجميل الرائع ان يدرك ذلك الفرق رجل فطرى لم يتلق دروس الاخلاق فى معهد دراسى وهو الاشج ولا يأتى ذلك إلا من ممارسة طيبة لأخلاق الناس والأشج كان رئيس عبد قيس ولم يتبوأ هذه الرئاسة عفوا دون اختيار بل أدرك معشره ما يتميز به من رجاحة نفسية فسودوه**

**فإذا ترطنا الحلم والتحلك فإننا نجد أمثلته فى نفوسنا حين يتملكنا الغيظ فى موقف ما ثم نرى الكظم وسيلة لحسم الشر ومن أمثلته التاريخية ما كان من معاوية حين أخذ يستقبل الوفود بعد عام الجماعة فكانت طوائف المتحدثين والمتحدثات تسمعه ما يكره وهو لا يريد إلا ابتساما ثم يسارع بالعطاء وقد يتملكه الغضب فيند ببعض الزجر فلا يلقى إلا عنادا كما فعل مع صعصعة بن صوجان والاحنف بن قيس والاول خطيب العرب وصاحب الامر فى قومه والثانى حليم العرب ومضرب المثل فيهم بالرجاحة والحزم والسداد وقد خطب معاوية فقال بالمدينة فى عام الجماعة " والله لا أحمل سيفى على من لاسيف له وإن لم يكن منكم إلا ما يشفى به القائل نفسه بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى " وهو كلام يدل على ثبات ورسوخ وقد قسم مرة قطفا " جمع قطيفة " فأعطى شيخا من أهل دمشق عطية لم تعجبه " وكان يرفق بالدمشقيين كثيرا " فغضب الرجل وحلف ليضربن بها راس معاوية فاستدعاه الخليفة وكشف له عن رأسه وقال : أوف بيمينك وليرأف الشيخ بالشيخ وتلك سياسة رائعة فى جذب الانصار واستمالة الجماهير والوصول الى مثلها شاق فللنفس نزوات صاخبة تعز على الاناة وكم من عاقل أخذ يدرب نفسه على الهدوء حتى سكنت بعد وثوب**

**قال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب عدة صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا عضبت فاعطى هذه وقال للثانى : إذا سكن بعض غضبى فأعطنى هذه فغضب يوما فأعطى الصحيفة الاولى فإذا فيها : ما أنت وهذا الغضب فإنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن ياكل بعضك بعضا فسكن غضبه فأعطى الثانية فإذا فيها : ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله وحده فليس لهم غير ذلك**

**هذا نمط من العلاج النفسى يقوم به إنسان يحرص على الحلم فيتحلم ويدعو أصحابه إلى ملاحظته كى يردوه إذا شط وهو فى ذلك يترسم خطا القرآن إذ يدفع السيئة بالحسنة وما يلقاها إلا الذين صبرواا**